ROGER CAILLOIS
THEORICIEN D'UN CLASSICISME NEUF

ETIEMBLE

روجيه كايوا يضع نظرية مذهب كلاسيكى جديد

كان هذا الكاتب نصيراً قديماً من أنصار مذهب السريالزم ، ثم فارق بريتون زعيم هذا المذهب بعد أن جهز قضية العقل فى الفن ، وكان عضواً بمدرسة باريس لعلم الاجتماع (مع جورج بتاى ، المدير الحالى لمجلة « كريتيك » وميشيل ليريس مؤلف كتابى « أفريقيا الشبح » و « عصر الانسان » وغيرهما . . .) قد فتن هذا الكاتب وقتاً ما بنزعات الفوضى والطغيان . كان العصر يقتضى ذلك . وما يزال بين الناس من يتهمه بأنه شديد الميل إلى هؤلاء الأقوياء الذين تجمعهم و إياه وحدة الآراء ، وأنه ينظر إلى الجماعات السرية وأعمالها فى كثير من التسامح والعطف . ولو قد خير بين الفوضى والطغيان ، لكان من الجائز أن يختار كايوا الأمر الثانى مستجيباً للأخلاق وعلم الاجتماع . ولكن كايوا لا يريد أن يتورط فى هذا الاختيار ؛ فحرصه على الدقة لا يعدله إلا حبه للحرية . ومن مفارقات الحرية أن نعمتها القيمة لا تنال إلا ممزوجة بالضغط ومحالفة له . ولا سبيل إلى ضمان نصيب قيم من الحرية الكريمة إلا إذا ضحينا منها بهذا الجزء اليسير الذى يوشك أن يكون اختلاطاً واضطراباً . «فهذه التضحية تثبتها وترفع قدرها ، على حين يهدمها الضغط الخارجى ويغض من قدرها الاسراف فى الميل إلى السهولة . » يظهر من هذا النص وعشرة من أمثاله أن سوء النية وحده هو الذى يستطيع أن يتهم كايوا بحب الطغيان . ومن الحق أن عصراً يمتاز بسياسة عامة تقوم على الاهمال والتراخى وترك الأشياء تمضى كما تشاء ، يتعرض فيه كل من يحاول أن يكون ذا ضمير وذا خلق وذا إرادة للاتهام والريبة أكثر مما يتعرض للاحترام ، وللبغض أكثر مما يتعرض لعرفان الجميل . فالكسالى والجبناء يبغضون كايوا لأنه يعرض عليهم صورة سيسفوس وهو يدفع صخرته أمامه .

فمنذ عاد من الأرجنتين حيث كان يدير أثناء الحرب «الآداب الفرنسية» ، نشر كايوا طائفة من الكتب : « تصافى الأقوياء » و « أكاذيب الشعر »

و «مناسبات» و«صخرة سيسفوس»، وكلها كتب رائعة اللغة، يقول فيها جايتون بيكون : إنها تدل على امتلاك للفن لا يطمع فيه الآن إلا أمثال أندريه جيد وجان بولون . وقد أضاف إلى آثاره هذه أخيراً كتاباً جميلا وهو « لغة الجمال » : «قرأت نقد الكتب التى كانت تظهر ، أو ناقشت فى قيمتها الهواة الذين أقدر أحكامهم ، فلاحظت أنى كثيراً ما كنت أوافق على الصفات التى كانوا يختصونها بها ؛ ولكنى كنت اخالف غالباً فى القيم التى تضاف إلى هذه الصفات . فاذا وصف أثر بأنه صادق أو طريف، كنت أوافق على هذا الوصف،وكان النقاد يرون هذا مدحاً على حين كنت أراه أنا عيباً . وكذلك لم ألبث أن لاحظت أن لى آراء تناقض أشد المناقضة ما شاع الاتفاق عليه حين يذكر الفن للفن ، والأدب المهذب ، والقواعد ، والصورة والمادة ، والتحديد ، واستعمال الصور فى الشعر ، وقيمة مالا سبيل إلى وصفه ، وتصور التاريخ الأدبى . »

وفى إطار من نوعين من التأمل فى الطبيعة وفى الفن عرض كايوا لغة للجمال حلل فيها القاعدة والحرية ، والنظام والصدق ، والفن للفن والأخلاق ، تحليلا يقوم به عقل من أعظم العقول صفاء فى هذه الأيام . فالطبيعة عدو للعدل والأسلوب . ولايستطيع أحد أن يجادل فى هذا الغرض الذى هو أساس من أسس الحضارة . وكايوا يعرف ذلك كأحسن ما تكون المعرفة ؛ لأنه فكر فيه على ساحل باتاجونيا :. « إن الانسان الذى يأخذ أثناء الحياة بحظه من غفلة الحيوان ، ويعجز عن أن يفكر فى الأشياء وقتاً أطول مما تسمح له به الأقدار ليكسب قوته ، مضطر إلى أن يعود إلى الطبيعة فى غير مشقة ولامهل ، ويصبح نهباً مقسما بين الشمس والموج . وهيكله المهمل فى غير عناية والذى لا يلقى من الرعاية أكثر مما يلقى الحيوان ، يذبل كما يذبل الحيوان ويفنى فى نفس السرعة التى تفنى فيها هذه الأحياء التى تشاركنا فى الحياة والتى تستأنف حياتها فى غير انقطاع وهى لم تحتفل بموتاها .

« إن الانسان حين يحتفر قبراً لجثته يضع الأساس لطمعه فى المستقبل . . . ويثبت كذلك أنه يعرف كيف يذكر وكيف يعد . ينشئ استمراراً . ومن حيث إنه يضيف جهوده إلى جهود معاصريه،فهو يوحد على غير شعور منه بين هؤلاء المعاصرين وبين جماعات كبيرة مضت وجماعات كثيرة أخرى لا تزال فى ضمير الغيب . وهو بذلك يشارك فى إقامة بناء خفى لا يعرف رسمه ولاأبعاده...

وكذلك يضع الخزّاف والشاعر شيئاً فشيئاً قواعد فنيهما . . . وعلى هذا النحو تظهر الحضارة . »

وقد استطاع الانسان وحده أن يفرض الأسلوب والعدل . ولو قد أعرض عنهما لكان لنفسه منكراً . وكل واحد منا مدين لنفسه (وللذين سبقوه والذين سيلحقونه من أمثاله) بأن يدفع أمامه صخرته المشبهة بصخرة سيسفوس ، وبأن يضيف إلى الكنز المشترك « بفضل مايبذل من جهد وما يتاح له من توفيق، نصيباً ضئيلا ليدخر فيه » . وبدلا من هذه الآثار المحاكية للطبيعة التى تموت وتحيا « فى شئ من الاختلاط البشع الذى لا يعرف نظاماً ولا غاية ، هذه الآثار التى تقلدها الرومانتيكية اللاواقعية والتى يحاول الاختلاط تنظيمها ، ينشئ الفن آثاراً تأتيها قيمتها مما تهدف إليه من غاية وما تعتمد عليه من نظام . « وفى أعماق هذا العالم البشع الذى يأتلف من اللحم والمهل والصديد ، وفى أثناء هذا التعفن الكدر المنتشر، يجرى دم حار يبعث الحياة فى قوة إلهية نشيطة، طامحة إلى ما هو فوق الفناء متعجلة براءتها من كل ما هو بشع قبيح » ومن كل ما هو مشترك بينها وبين القوى الطبيعية .

فكايوا لا ينكر إذن حظنا من هذه المادة الطبيعية التى تجنح إلى الفوضى ، وهو يعلم أن لا سبيل إلى البناء المتين إلا على الطين، وأن مدينة مكسيكو التى تقوم على مستنقع تستطيع من أجل هذا أن تثبت للزلزال . ومع ذلك ألم يكن بد من تجفيف الوحل و إقامة البناء ؟ ومن هنا يريد فرويد أن الآيات التى ينتجها العقل لا تسمو إلا إلى أن ترتفع بحاجاتنا العضوية . ومع ذلك فقد يجب أن ترتفع بها ، أى أن تفرض على هذه الشهوات وعلى هذه القوى الغامضة « مقاومة وحواجز » ، وأن ترسم لها « قواعد دقيقة» ، وتستكشف لها « قيوداً محددة » ، فتذلل بذلك إسرافها فى الاضطراب «حتى يصبح الجموح نظاماً ومعرفة . » هنالك يكوّن الوعى والحرية ما يسمى أسلوباً يختص بمزية توشك أن تكون مكافئة له ، وخلاصتها قدرته على أن ينتج آثاراً «لايمكن أن تختلط ولا أن تشوه » كما تختلط وتشوه الآثار التى تفرزها الطبيعة فى غير وعى ولا شعور .

حرية ، ولكننا قد قلنا إن الحرية يجب أن تفهم على وجهها ، وهى التى تعرف كيف تخلق لنفسها « قيوداً جديدة » ؛ فان « فى النص الذى يلاحظه الكاتب ملاحظة دقيقة شاملة ، ويخضع كل لفظ من ألفاظه للنقد والتدقيق، حرية

أكثر مما فى النص الذى يفلت من الكاتب إفلاتاً » . ومن هنا كان أشد أنصار الفوضى اندفاعاً إلى الفوضى سراعاً إلى نسيان مذهبهم كله حين يقبلون على الأثر الفنى . وانظر إلى فكتور هوجو الذى هو ، إذا صدقناه ، قلنسوة حمراء وضعت على معجم قديم . كأنه لم يتخير الألفاظ فى شعره تخيراً دقيقاً فيؤثر منها النقى الممتاز و يهجر الشائع المبتذل . وزعيم السريالزم ،ذلك الذى كان يريد أن يقلب كل شئ رأساً على عقب ، تستطيع أن تهمل قليلا من شعره — وهو أقله حظا من الجودة — فسترى بعد ذلك أن كتب أندريه بروتون ، ولا سيما « الحب المجنون» ، تمثل الآن أجمل النثر الفرنسى ، نثر بوسويه ، والرائع من نثر شاتوبريان . ولم يزد كايوا فى حقيقة الأمر على أن قال جهرة ما يقوله كثير من الآثار التى تنكر مذاهب أصحابها ، وهو أن قواعد الشعر لها أسبابها وقيمتها ، وأن الشعر المطلق لا يوجد إلا بالقياس إلى الشعر المقيد ، وأن نظام المأساة لا ينبغى أن يتأثر بما يغض من قدر السياسيين الذين يحرصون على أن يحتفظوا بما يلائم أهواءهم من الاضطراب ، وأن الحرص على الطرافة مهما يكن ثمنها يدل على شئ من الهمجية ، و« أن المهم ليس هو أن تبتدئ جديداً ، و إنما هو أن تتقن ما تحدث من الآثار » ، وأن الشعر ،كما كان يقول مالرميه ، يأتلف من الألفاظ لا مما لاسبيل إلى التعبير عنه ، وأنه لايكفى لجمال الصورة أن تكون مفاجئة ، وأن الخير فى ذلك أن يلائم الكاتب بين البداهة والفجاءة ، وأن الفن للفن وهو نوع من لهو الفنانين « لا يستطيع أن يرضى إلا هذه الجماعة الضئيلة التى تراها نهاية الغايات » ، وأن الفن خليق بتقدير أوسع وأشمل بحيث يستطيع أن يمس كثرة الناس وأن يبلغ من الانسان « أيسر مشاعره وأكثرها إلفاً » ، وأن الكتاب إذا حسن أسلوبه ، وهذا هو الشرط الأساسى لكل أدب مثقف ، فليس ما يمنعه بعد ذلك من أن يكون شديد الملاءمة للخلق ، معيناً على إصلاح القيم .

وعلى الجملة « لا بد من التعليم فى الآداب وفى الحياة كما فى العمارة ، ولا سبيل إلى إيجاد الأسلوب إلا من طريق البناء والتأليف » . ونحن نعرف هنا هذه المقتضيات التى تفرضها اللحظات السعيدة حين يعمل العقل فى مادة مصهورة مرنة ، فينشئ منها آثاراً نادرة يقيمها التوازن فى مكان مقسوم بين الصور الهندسية الجافة والانتاج الطبيعى المختلط ، وهى لحظات الانتاج الكلاسيكى .